النسخة الأصلية
:اللّيلة السّاكنة!اللّيلة المباركة

قصة جديدة لحياة يوسف مور وأغانيه التي ألفها في مدينة
زالتسبورغ

© حقوق التأليف سنة ١٩٩٦ وجميع حقوق الطبع والنسخ الحالية أو المستقبلية محفوظة لهانو شيل تنقيح ومراجعة: فراس الهنداوي ومعز خلفاوي وثامحفوظي

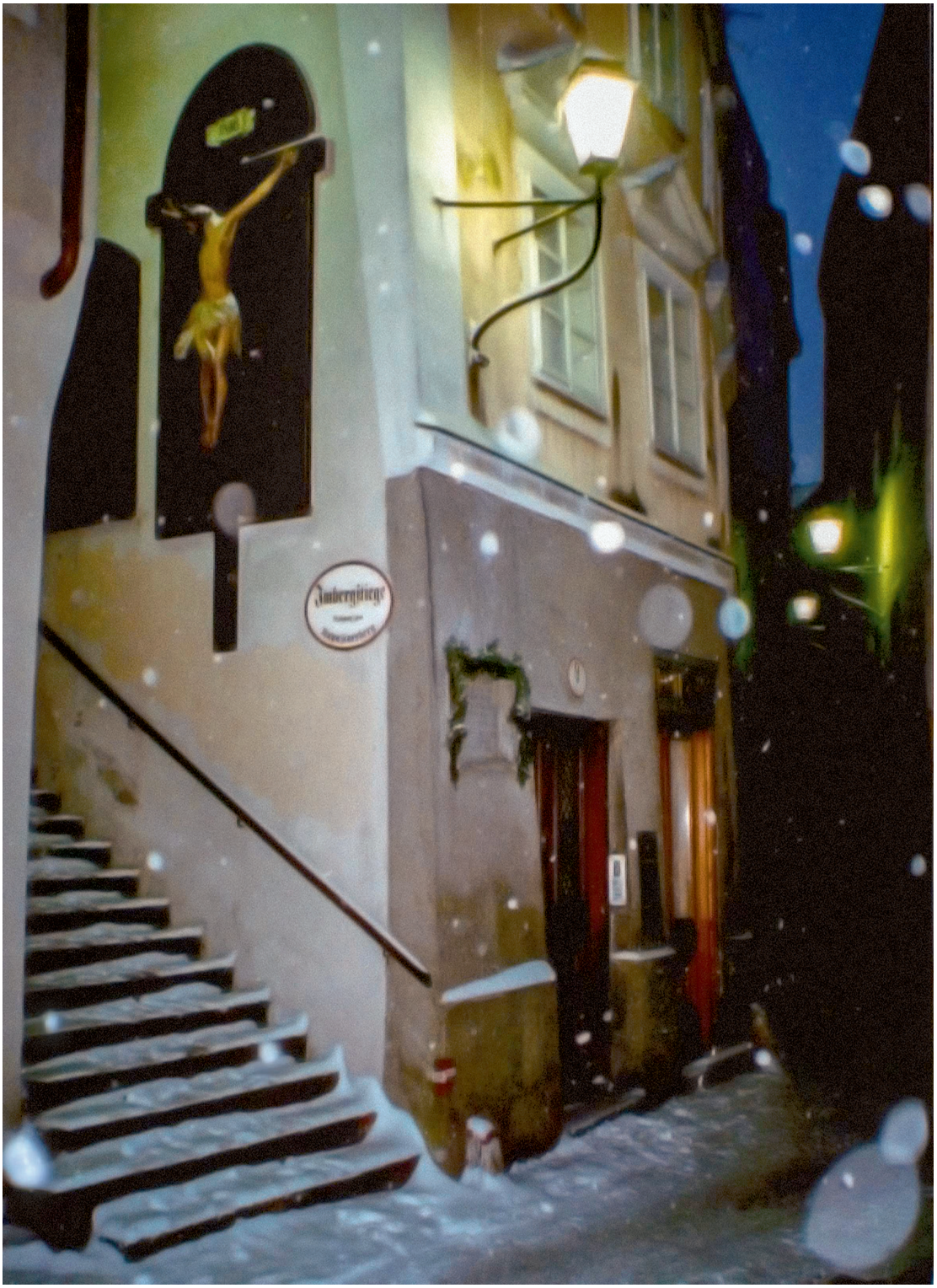

متحف الليلة الصامتة، شتاين غاسه ٩، زالتسبورغ

غرفةُ الولادةِ المقلَّدة، متحف الليلة الصامتة، زالتسبورغ

مطبخ، متحف الليلة الصامتة، زالتسبورغ

تعالوا معي لنعود بذاكرتنا إلى عام ١٧٩٢

فى ذلك الزمان بمدينة زالتسبورغ النمساوية وفى حارة ضيقة تُسمى شتاين غاسه، كان هناك سيدة تبلغ من العمر ٣٨ عامًا هى السيدة آنّا شويبر والدة يوسف، كانت تعيش بغرفة صغيرة لا يزيد حجمها عن أربعة أو خمسة أمتار تقريبًا وبها بعض من قطع الأثاث الصغيرة والبسيطة جدًا، كما تحتوي على جهة من حائط الغرفة، أصواف معلقة مُجهزة للغزل، وعلى الجهة الأخرى بعض الخيوط المغزولة الملفوفة، كما تحتوي على قفازات وشالات وجوارب مغزولة ومعلقة على حبلٍ، وعلى طاولة كبيرة توجد شمعة خافتة تُضيئ الغرفة بصعوبة، وبجوارها تجلس أم آنّا، التى تبلغ من العمر ٧٢ عامًا، وتغزل بعض الأشياء، فى نفس الغرفة كانت تعيش أيضًا أختا يوسف من الأم وبنت خالته تيريزا والتى كانت تحاول تجميع الشمع الذى يتساقط جوار الشمعة الموشكة علي الإنطفاء، وكانت تقوم بوضعه فوق الشمعة مرة أخرى حتّى تظل مضيئة أطول فترة ممكنة . هؤلاء الأفراد الخمسة كانوا يقتسمون الغرفة الصغيرة فيما بينهم، وكان يوجد بخارج هذه الغرفة مطبخ صغيرلا يسع إلا لفرد واحد ولا يُسمح بإستخدامه إلاّ لتحضير الوجبات الغذائية ثلاث مرات يوميًا فقط، ذلك لكي يُتاح لبقية الجيران الآخرين إستخدامه، و حتى لا تُعطى الفرصة للناس الفقراء للبقاء في المطبخ الدافئ دون عمل طوال اليوم.هنا كانت آنّا تستغل فترات الطبخ في المطبخ وتضع صخورا حجرية في الفرن، ثم بعد الطبخ تنقُل هذه الصخور على صاج حديدي إلى الغرفة الصغيرة للحصول على نسبة من الدفئ.كانت آنّا مُضطرة للبحث عن عمل آخر يُساعدهم على المعيشة الصعبة، ذلك لأن العمل بالغزل والنسيج لم يكن كافياً لمعيشتهم اليومية.

لهذا كانت آنّا تنتظر يوميًا في سريرها الدافئ ليستمر دافئا حتى يحضر كلّ صباح مبكر بعد إستيقاظها من النوم، ما يُسمى ذلك الحين بدخيل أو مستأجر السرير وهو الجندى فرانس يوسف مور البالغ من العمر ٢٨ عامًا وهو من مواليد ماريابفر ـ لونجاو ، وكان يؤدى خدمته العسكرية كحارس على بوابة شتاين(البوابة الحجرية). كان هذا الجندي يستأجر سريرها الدافئ مقابل مبلغ من المال ليستغل دفئه خصوصا في أيام الشتاء القارس البردودة. بعد تسعة أشهر من فصله وطرده من خدمته بالجيش، وقبل إختفاءه، أعترف فرانس بأن السيدة آنّا تنتظر منه طفلاً ولذلك سُمي المولود الجديد بأسم يوسف مور.

حارس البوابة الحجرية، زالتسبورغ

بعد هذه الواقعة حُكم على السيدة آنّا شويبر بدفع مبلغ من المال غرامة على هذه الواقعة غير الشرعية وهي إنجاب طفل غير شرعي مجددا، وكما كان الحال كذلك مع الأختين الأخريين غير الشرعيتين ليوسف وكلّ منهما من أب مختلف عن الآخر ولم يكونوا متزوجين من السيدة آنّا. كانت الغرامة تُقدر بتسعة جولدن أي ما يساوي مجموع الدخل السنوي للسيدة آنّا، فعلى سبيل المثال كان ذلك الحين سعر الثور يعادل اثنا عشرة جولدن.

الجلّاد، فرانس يوسف ووملوت

وهي لم تستطيع أبدًا تحمل دفع هذه الغرامة الباهظة ولذلك ذهبت وهي تحمل المولود الصغير يوسف، إلى منزل الجلاد الذي يقع في مقبرة الكومُنال بزالتسبورغ لكي تستنجد به لمساعدتها على الخروج من هذه الورطة. ذهبت اليه تحمل توصية خاصة من السيدة خياطة الملابس الجلدية في لينزا غاسه. وقد أتاحت لها مقابلة هذا الجلاد السيد فرانس يوسف ووملوث الذى كان من أغنى رجال المدينة، وكان أكثر فرد يكرهه جميع أهل المدينه في زالتسبورغ، ذلك بعد تنفيذه لاحكام الاعدام على أكثر من خمسين حالة كما عرف عنه أسئلته الجارحة للناس المتهمين، اضافة الى ذلك أحكام التعذيب الشديدة، لذلك كان يهابه الجميع ولم يجرؤ أحد على مقابلته أو النظر في عينيه، غير أنه في الواقع كان طيب القلب و له نظرة إجتماعيه سليمة. عرض هذا الرجل على السيدة آنّا شويبر بأنه سيدفع لها الغرامة المطلوبه منها مقابل أن يكون هو المسؤول عن تعميد الطفل يوسف في الكنيسه. ولكنه فى يوم التعميد المحدد وبجوار الحوض الكبير من كنيسة الدووم لم يظهر هذا الجلاد ولكنه أرسل الطباخة فرانسيسكا زاخيم لكي يتفادى اللّحظة المحرجة له وهى أثناء حمل الطفل يوسف المجهول الأب أمام أهل المدينة.

لم يكن هذا الحدث الأليم فى صالح الطفل يوسف، ذلك لأنه أولاً من أب غير شرعي و ثانيًا مسؤولية الجلاد المكروه من الجميع عليه، وكلتا هاتين الحالتين كانتا من أكثر السلبيات التى لازمت طريق حياته المستقبلية دائمًا، فلم تقبله أية مدرسة بهذه الظروف أبدًا وهذا ما تسبب في عدم إستطاعته التعلم فى أي مدرسة عادية أو أن يتعلم حرفة يدوية ، فلم يبق له إلا أن يكون كوميديا أو عازفاً موسيقياً فى شوارع المدينة وفى أسهل الحالات أن يكون بحاراً. في السنوات الموالية ظل الشاب يُراقب من على جانب النهر المراكب التى تنقل الملح من مناجم الملح في هالليين في زالتسبورغ وتتجه إلى أونتر لاوفن أو إلى أوبرن دورف وهناك يُعاد تحميل الملح على مراكب أكبر لينقل عبر نهر الدانوب إلى فيينا ثم إلى مدينة بودابست فى المجر.وفي أثناء طفولته، كان يوسف أحياناً يركب مع هذه المراكب الصغيرة لمسافات قصيرة ثم بعدها بفترة يقفز مرة أخرى على ضفة النهر ويعود على قدميه إلى منزله.

جبل الكبوشية، زالتسبورغ

والمكان الثاني الذى كان يلعب فيه أثناء طفولته هو إيمبرج اشتيجا التى تقع خلف منزل شتاين غاسه و التى تؤدي إلى دير كابوتسينر بيرغ الذي كان من أحب الأماكن لأهل مدينة زالتسبورغ للتنزه خصوصًا فى أيام الآحاد و العطل الرّسمية، هناك كان الناس يمشون من لينزا غاسه باتجاه الدير. من هناك يمكن للمرء ان يتمتع بمناظر زالتسبورغ و القلعة الرائعة ا الجبال الخلابة التي تشكل خلفية رائعة، ثم يعودون عبر طريق إيمبرج اشتيجا مرة أخرى إلى المدينة. وعلى هذه السلالم كان يجلس يوسف أثناء لعبه وينظر و يتأمل دائمًا فى الناس المارّة وما يرتدونه من ملابس جميلة.

من هذا المكان أيضا أتيحت له فرصة التعرف على الكاهن ورئيس كورال كنيسة الدووم بزالتسبورغ السيد نيبوموك هيرنله الذى سمع صوته وهو يغني وأعجب به جدًا وأكتشف موهبته الموسيقية، ولذلك بعد حديث السيد نيبوموك هيرنله إلى أم يوسف وسماعه منها قصة ابنها يوسف المؤلمة، بأنه طفل غير شرعي وله مشاكل كثيرة، تأثر جدًا بحالة يوسف، ولذلك قرّر أن يتبنى يوسف وأن يعطيه فرصة التعليم على أعلى مستوى، ثم أتاح له فرصة الإلتحاق بمدرسة القديس دَير سانت بيتر بِنيدكت، زالتسبورغ التي لا يلتحق بها إلا الموهوبون والأغنياء. بعدها التحق يوسف بالمدرسة الثانوية الأكاديمية، وفي عمر الثانية عشرة أصبح يجيد العزف الموسيقي على ثلاث آلات موسيقية وهي القيثاره، الكمان والاورغ. إلى جانب ذلك أصبح يوسف مشهوراً بصوته المميز أثناء غنائه مع الكورال واثناء عزفه على الكمان.

دَير سانت بيتر بِنيدكت، زالتسبورغ

وفي عمر الثالثة عشرة عُوقب يوسف لأول مرة على تأخره وعدم حضوره غناء الكورال في ميعاده المحدد، والسبب في ذلك هو أنه كان يذهب للغناء في كنيسة كوليجن التي يغني بها باللغة الألمانية وهذا ما كان يحبذه، لأنها الكنيسة الوحيدة في ذلك الوقت التي تُؤدى بها الصلاة و الغناء باللغة الألمانية، ذلك أن غالبية الكنائس الأخرى سواء في المدينة أو بخارجها كانت الصلاة فيها باللغة اللاتينية التي لا يفهمها أكثر من ٩٥ في المائة من الشعب.وكان المسؤول عن هذا التغيير في اللغة هو رئيس أساقفة زالتسبورغ هيرونيموس كولوريدو الذي كان يريد طرد الموسيقار موزارت من المدينة، ولكنه كان فى الواقع قسيسا محايدا. في عام ١٧٨٧ قرّر رئيس الأساقفة رغم أنف جميع القساوسة أن تكون الصلاة في الكنيسة باللغة الألمانية، وكان على القساوسة توضيح المعاني الصعبة كلّ يوم أحد أو في أيام العطلات الرّسمية.

رئيس أساقفة زالتسبورغ، هيرونيموس بن كولّوريدو

لذلك عارض القساوسة معارضة شديدة هذا التغيير الجوهري في مسار الكنيسة المسيحية. وعندما اشتكى رجال الاكليروس الى الفاتكان بأن رئيس الأساقفة صديق للبروتستانت وما يفعله غير صحيح، ولكن كان رد الفعل بأن تقرر تعميم اللغة الألمانية كلغة في الجامعة وتسهيل دخول الشباب الموهوبين الموسيقيين الجامعة التابعة للكنيسة مهما كانت ظروفهم الإجتماعية. بهذا التغيير الصارم أُتيحت الفرصة إلى يوسف للدراسة بالجامعة. في عام ١٨٠٨ حضرت جيوش ولاية بڤاريا إلى مدينة زالتسبورغ، وكانت وقتها جيوش نابليون ما زالت تتحرك للحرب في أوروبا، هنا حاول يوسف الإبتعاد عن الحروب والتحق بجامعة بِنيدكت في كريمس مونستر حيث درس هناك الفلسفة والثيولوجيا والبلاغة والموسيقى.

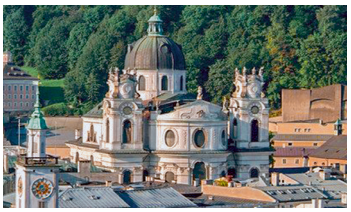

كنيسة جامعة بِنيدكت، زالتسبورغ

وفي العام ١٨١١ عاد يوسف مرة أخرى إلى زالتسبورغ والتحق بقسم تدريب القساوسة وقد أعفاه المعهد من تكاليف الدراسة. وفي ١٨١٥ اجتاز يوسف الامتحان وتأهل ثم أُختير ليعمل قسيسا رسميا مُعتمدا، وذلك بعد أن تعلّم أصول المهنة وكان مُستعدا ومهيأ لتلحين وكتابة أغاني ألمانية مختارة ولائقة بالكنيسة، وكان هذا من أهداف رئيس الأساقفة كولوريدو الرئيسية، فقد كان يعتقد أنه من السّهل على القساوسة الآخرين أن يتقبّلوا التغيير في الموسيقى، خصوصًا إذا كان هذا التغيير من قسيس زميل لهم.

بعد ذلك ذهب يوسف لزيارة بعض الأصدقاء في بيرشتس جادن ليحتفل معهم بحصوله على شهادة القساوسة وفي طريق عودته مرّ خلال مكان يدعى رامساو. وبالصدفة كان هناك القسيس سيڤيرين ڤالنر المسؤول عن الكنيسة في القرية. فحصل تفاهم جيّد وتجاوب مع يوسف ولذلك أختاره أن يكون مساعدا له في الكنيسة حتى أول أكتوبر عام ١٨١٥ وذلك رغم أنّ القسيس ڤالنر أبدى إعجابه جدًا بيوسف و أعلن أنه يريد الإحتفاظ به لمساعدته. قرر بعد ذلك مركز الاساقفة أنه لا بدّ ليوسف أن يذهب إلى قرية ماريابفَر التي تبعد ١١٠ كيلومتر عن جنوب زالتسبورغ. و بعد ثلاثة أيام وصل إلى رادشتات وهناك استطاع بأن يستمتع بجمال آخر أيام الصيف ثم اتخذ طريق روما القديم متجهًا إلى أعالى التوَرن – باس التي يبلغ ارتفاعها ٢٠٠٠ متر تقريبًا عن سطح البحر، وبعدها وصل إلى الباس حيث رأى الثلج الكثيف الذي يرتفع إلى ثلاثة أمتار، ومن هذه المنطقة يصبح الجزء الآخر من الباس منفصلا تمامًا عن العالم الخارجي خلال الستة أشهر القادمة تقريبًا حتى آخر إبريل لا توجد اي مجموعات مسافرة. و في اليوم الثاني وصل يوسف إلى قرية ماوتِرن دورف و التي تقع ضمن واد لمسافة ١٢٠٠ متر مع وجود جبل شاهق. أثناء تفكيره وإنشغاله بما سوف ينتظره هناك فى هذا البلد البعيد وصل أخيرا إلى ماريابفَر البلد التي لم يتعرّف عليها أبدًا في حياته والتي هي بلد أبيه الجندي المجهول.

هناك في ماريابفَر البلد التي رآها رائعة الجمال استقبله القسيس اللّطيف شتوف بكل حفاوة وتقدير في صالون الكنيسة الكبير وكان بجواره أثنين من القساوسه مساعدين له هما القسيس لوكر والقسيس ڤيند، وكان يتبع لهذه المجموعة من القساوسة والكنيسة عشرة قرى أخرى مجاورة. بعد بضعة أيّام تأقلم يوسف وتعوّد على الحياة هناك، بعدها لازم القسيس شتوف وشاركه في حفل تعميد طفل بقرية هازن –جوت التي تبعد كيلومترين عن قريتهم، وهناك عرّف القسيس شتوف يوسف الذي لم ير أباه أبدًا في حياته لأول مرة على والد أبيه (أي جده) البالغ من العمر ٨٦ عامًا السيد فرانس يوسف مور الذي كان يحافظ على تنظيم حمامات هازن– جوت وكان هذا الشيخ من قلائل الرجال التي تقُدّر وتُحترم بالأخص من قبل النظام الصحي الذي تديره السّيدات في هذا الوقت. كان يعيش في هذا الوادي تقريبًا ٧٦٠٠ نسمة أما اليوم فيعيش فيه ليس أقل من ٢٩ ألف نسمة. لم يكن هناك إلا طبيب واحد فقط في القرية المجاورة تامزڤيج التي تعتبر أكبر قرية في لونجاوس، ولهذا يلاحظ ضرورة الولادة و العلاج الطبيعي وأهميتهما في المحافظة على صحة أهل هذه المنطقة، فقد كان أمل الحياة في تلك الفترة خمسون عامًا، و لذلك كان جد يوسف المتقدم في العمر أكبر دليل وشهادة على العصر، لأنه كان من أمهر الناس و أشهرهم بخليط الأعشاب والمشروبات الطبيعية للعلاج الطبيعي.

ماريابفَر

بيت الجد، ماريابفَر

الموكب التقليدي "شمشون"، ماريابفَر

لهذا أصبح يوسف الذي درس الطبيعة و تعلم الدين كذلك مشهوراً جدًا مثل جده، وقد أحتضنه أهل لونجاوس بحبّ لأنهم لم يشهدوا أهدأ ولا أجمل من هذه الفترة خصوصًا التضامن بين الأهل بعد فترة أستعمار الكلت والسلاف والرومان للمنطقة. وعلى الرّغم من سبعة شهور من العزلة بين التوَرن – باس واللونجاوس، فقد حافظ قساوسة ماريابفَر على العادات و التقاليد القديمة دائمًا، ذلك لأن معظمهم من الفلاحين فمثلاً القسيس شتوف المولود في ماريابفَر والذي نشأ وترعرع على هذه العادات والتقاليد، و كذلك بقية القساوسة الآخرين اللذين يدرسون بعيدًا عن المنطقة ثم يعودون أليها مرة أخرى فتسهل مهمتهم في العمل في أية منطقة أخرى بعيدة عن هنا، لأنهم يعلمون تمامًا كلّ هذه العادات والتقاليد، ولذلك يستطيعون توضيح رسالة الحياة المسيحية.

إذا كان هناك بعض المعارضين لهذه العادات والتقاليد فيتعامل القساوسة معهم بلطف وإحترام ويحاولون إحضارهم إلى الكنيسة وإرجاعهم إلى صوابهم وهم يعلمون أن هذه من عادات المنطقة وتقاليدها، وباسم الله يحاولون أن يضموهم للكنيسة. ويُلاحظ أنّ كلّ ما تعلّمه يوسف هنا في ماريابفَر خدمه كثيرًا جدًا في تلحين القسم الخامس من أغانيه لأعياد الميلاد . كان الاطفال في المدارس يتعلمون بقايا تاريخ معابد الرومان وعادات الكلت وقبائل السلاف، ليس بهدف الإلغاء والتشويه أو التحطيم ولكن لأجل العلم والمعرفة. و لذلك نلاحظ أن بعض الصخور الرومانية القديمة أستخدمت مثلاً في بناء عواميد شتاودينجر– جوت في شتاين دورف.

كانت الحياة هناك هادئة ومتناسقة بين الفلاحين المرتبطين بالطبيعة ورجال الدّين المسيحي، وهذا التضامن الواضح نتج عن العادات والتقاليد القديمة الواضحة بينهم والأقوال القديمة مثل حكاية إخوة الذئاب، الذين أختفوا في المزارع ومُسخوا فتحولوا إلى قطع خشب حماية لهم ، أو قصة الجنّ الذي له رأس كلب ويعيش في كهف صخرة بيضاء وكان يرهب المارة في اللّيل، إلا من يكون بصحبته كلب يحميه فينجو من هذا الخوف والذعر، فقد حمت الكلاب كثيرا من النّاس من هذه الصخرة، هكذا كان إعتقادهم. ولكن الأقوال والعادات بين الناس كان ذات أوجه مختلفة وعديدة فمثلاً كانوا من حين إلى آخر وفي كلّ مناسبة يطلقون المدافع لأنهم يعتقدون أن أصواتها العالية توقف الأمطار الغزيرة وأحياناً يطلقوها لتنشط الأمطار خصوصًا في الفترات عديمة الأمطار، وهذه العادات كان متعارفا عليها ولكن هذا التغيير المتعارف عليه لم يؤثر أبدًا في الأغاني المعتادة في أعياد الميلاد ولا في عادات وتقاليد عيد الميلاد المتعارف عليها ذلك الحين. وقع تغيير في هذه العادات مرة واحدة سنة ١٦٠٠. هذا الحدث سيكون له وقع كبير على مولد أغنية عيد الميلاد التي تعنينا هنا.

كورال في ماريابفَر

في هذه الفترة الزمنية أُرسل قسيس إلى ماريابفَر غريب عن هذه المنطقة وعن هذه العادات و لكنه كان ضد هذه التقاليد، ذلك لأنه يعتقد ويقول إنها من عمل الشياطين، ولذلك أمر بتحريم هذه التقاليع والإحتفالات الشيطانية فلم يتجاوب معه أبدًا أهل منطقة اللونجاوس لهذا قام برفع نسبة الرسوم والضرائب بنسبة عالية، وقد أثّر هذا تأثيرا سلبيا على أهل المنطقة بالأخص في الكنيسة الكاثوليكية في الأعوام الثلاثة اللاّحقة، فقد انتقلت من مجموع ٣٥٠٠ أسرة مسيحية كانت على المذهب الكاثوليكى، ٢٨٠٠ أسرة إلى المذهب البروتستانتي. ولما علم رئيس الأساقفة بعد ثلاث سنوات بهذا الحدث المؤلم للكنيسة والذي أثّر على الحالة المالية والإجتماعية للمنطقة، أرسل قسيسا آخر من أبناء المنطقة يعلم تمامًا عاداتهم و تقاليدهم المألوفة فعادت خلال عام ونصف عام جميع الأسر إلى المذهب الكاثوليكي ماعدا خمسون أسرة فقط لم ترجع. وبعدها عادت الحياة إلى مجراها الطبيعي، وقد أكّد لهم القسيس الجديد على ضرورة الإحتفاظ بهذه العادات القديمة ، ولكن هذا التغيير أثّر لامحالة على بعض عادات الناس في الكنيسة اليوم. وبما أنهم كانوا من البروتستانت و كان ممنوعا عليهم دخول الكنيسة الكاثوليكية وكانوا لا يريدوا أن تضيع عليهم صلاة يوم الأحد فإضطروا أن يتقابلوا سويًا فى أحد منازل الفلاحين كل يوم أحد لقراءة الإنجيل.

و في الأعياد الكبيرة مثل عيد الربيع ، عيد البشارة ، وعيد الفصح و أعياد الميلاد كانوا يقضونها فى أكبر منزل من منازل الفلاحين الكبيرة حيث تُزيَّن الحظائر و الحدائق ، و لأنه لم يكن هناك ألة موسيقية مثل الأورغ لعزف الأغاني، فقد أستخدموا آلات الفلاحين الموسيقية مثل الجيتار ، الكمان ،الفلوت و قرون الأبقار، ولأنهم لم يستطيعوا أو لم يريدوا فهم أو حفظ الأغاني اللاتينية فحولوها إلى أغاني ألمانية ، و لهذا كلّه عندما عادوا مرة أخرى إلى الكنيسة الكاثوليكية أخذوا معهم أغانيهم الألمانية و آلاتهم الموسيقية للكنيسة.

وفي عام ١٨١٥ أثناء الأحتفال بعيد الميلاد، أحتفل القساوسة شتوف، يوسف والمتضامنين لوكر وڤيند في ساكريستاي (مكان القساوسة) مع المصلين الحاضرين بصلاة وجوّ احتفالي لا يُنسى دام حتى منتصف الليل. هذه الليلة لم ينسها يوسف أبدًا فهناك عُزف على الأورغ فقط أثناء دخول القساوسة ومساعديهم وخروجهم، دام العزف حتى جلوسهم على مقاعدهم، ثم بدأت آلات الفلاحين الموسيقية في العزف. في البداية كانت الأغاني كوريَه وجلوريا أكسيلسِس ديو، غُنيت باللاتيني ثم غنوا بعدها أغنية من يطرق الباب باللغة الألمانية و كانوا احيانا يغنون أغنية باللاتيني وأحيانا أخرى يغنون بالألماني ، وقد أدخل القسيس شتوف اللغة الألمانية في خطبته اللاتينيه ووضّح في الخطبة ماهية عيد الميلاد بالنسة له وبالنسبه لجميع المسيحيين. وقد أُعجب يوسف جدًا بهذه الخطبة المنسقة التي تتميز بالبساطة والجمال. وبعد عام قام يوسف بتلحين أغنية جديدة لعيد الميلاد وقد لحّنها على الجيتار لكي يستطيع عزفها فى أي مكان وزمان، وفي نفس الوقت كان يفكر دائماً في الناس الذين لم يستطيعوا الحضور للصلاة أو التعبد في الكنيسة بسبب قسوة البرد و كثافة الثلج أو بسبب المرض أو لإختلاف مذهبهم البروتستانتي أو المطلقين أو غيرهم الذين ليس لهم علاقة بالكنيسة أبدًا، لذلك كان مبدأه هو: «إن ما تفعله لأقرب «الناس إليّ كأنك فعلته لي أنا بالضبط.

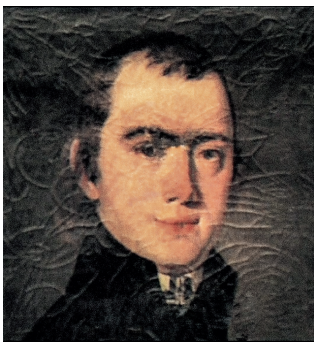

الكاهن يوسف شتُّوف

غيتار يوسف مور

فى يناير عام ١٨١٦ توفي الجد الكبير مور بعد ما مكث يوسف أربعة شهور كاملة و جميلة معه. وفي ٢٧ يناير حمله يوسف ليودعه في قبره آخر مرة، ثم حاول أن ينسى هذه الظروف الحزينة وانشغل في مشاغل الحياة. كانت زالتسبورغ هي آخر بلد يسقط في يد الاعداء. ففي عام ١٨٠٨ كانت جيوش البڤـاريا هنا وفي أبريل عام ١٨١٦ وُقّع أخيراً في مدينة ميونيخ اتفاق السّلام.

الانجيل غرلّينغر

وينصّ هذا الاتفاق على خروج جيوش البڤـاريا خلال شهر من زالتسبورغ وذلك ما أدى إلى قيام جيوش البڤـاريا بالنهب و السرقات الكثيرة وقد أختفى كثير من الأشياء الثمينة مثل إنجيل–غرلّينغر وكذلك أواني وأطباق مزخرفة فضية رائعة وثمينه من كنيسة ماريابفَر التي أسسها القسيس غرلّينغر عام ١٤٢٠ والتى جعلها ملجأ يحجّ إليه جميع المسيحيين ويلجؤون إليه في أي وقت . وفي هذه الفترة لم يحسّ النّاس أبدًا بالحرية وكذلك كان هذا شعور يوسف، كان كثير التأثر بهذا الوضع، لهذا كتب ولحّن مقطوعة عن الحرية والحياة الهادئة، لأن الجميع كانوا متعطشين جدًا للهدوء والحرية، ولهذا أطلق على المقطوعة أسم (اللّيلة السّاكنة!اللّيلة المباركة) هذه المقطوعة التي مازالت حتى وقتنا هذا الأغنية الأولى التي تُغنّى في جميع الكنائس في أعياد الميلاد كرمز للهدوء والسكينة والحرية.
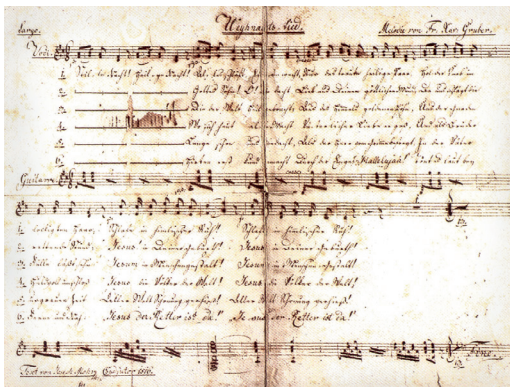
مخطوطة «أغنية عيد الميلاد»،١٨١٦

و أثناء حلول بداية فصل الشتاء القارس المتقدم في أواخر فصل الخريف لم يبخل يوسف أبدًا، وهو المعروف بالنشاط غير العادي، في مساعدة الفقراء وخاصة في ظروف الجوع الصعبة. وذلك رغم ضعف جسمه وتركيزه. كان يوسف يذهب إليهم في أعالي الجبال العالية لكي يساعدهم في محنتهم، مما أثّر على رئته الضعيفة التي سببت له مشاكل كثيرة أثناء طفولته في شتاين غاسه. في ذلك الوقت كانت أمراض الرئة من الأمراض الشعبية الشائعة التي عانت منها إيضاً أسرة شويبر.

اوبيرن دورف في زالتسبورغ

فرانس كزافير غروبر

وقد رافقه هذا المرض حتى عام ١٨١٧ شهر يونيـو. عند ذلك الوقت اشتد عليه المرض، و كانت حياته معرضة للخطر. وبعد محاولة الطبيب الوحيد في تامزڤيج الذي لم يستطيع مساعدته، أحضره القسيس شتوف إلى المستشفى العام بزالتسبورغ وهناك مكث ستة أسابيع تقريباً، تحسنت بعدها حالته الصحية.في الأثناء ساعده القسيس شتوف للعمل كمساعد قسيس في قرية أوبيرن دورف التي فيها صديق القسيس شتوف القسيس الذي هو من مواليد ماريابفَر السيد يوسف كسلار الذي كان محبوبًا جدًا من أهل القرية، ولذلك فقد تفاهم يوسف معه وانسجما بكلّ سهولة. وبعد بضعة أسابيع نظّم القسيس كسلار ويوسف، بمساعدة المدرّس وعازف الأورغ السيد فرانس كزافير غروبر، في يوم الأحد أوّل قدّاس وصلاة وخطبة جديدة من نوعها لأنها باللغة الألمانية وتمّ كذلك تقديم الأغاني اللاتينية والألمانيّة وهذا ما أُعجب الحاضرين كثيرًا وأسعدهم، لأنها كانت أول مرة يفهمون فيها ما يحدث وما تقوله الكنيسة.

و لقد حكى الحاضرون للآخرين اللذين لم يحضروا عن جمال هذا القدّاس وروعته التي لا تنسى فأنتشر الخبر فبلغ القرى المجاورة، لذلك إزداد عدد زائري الكنيسة، فأضحت مزدحمة ومليئة بأهل القرية والقرى المجاورة، الذين يأتون لحضور القداس والصلاة هناك. و قد أستمرّ هذا الحال ثلاثة شهور.

وفي نوفمبر من العام ١٨١٧ نُقل القسيس كسلار إلى مكان آخر ليحلّ محله القسيس العابس غيورك هاينرش نُستلِر المعروف بكونه من المتمسكين جداً بالعادات والتقاليد القديمة. لذلك كان أوّل ما فعله هو منع يوسف وغروبر من تقديم القداس أو الأغاني باللّغة الألمانية أو باللغات المختلفة، .لأن رأيه الخاص هو أن اللغة الألمانية ليس لها مكان في الكنيسة وأن لغة الكنيسة كانت دائمًا هي اللغة اللاتينيه.

كان يوسف معارضا لهذا الرأي، وكانت ردة فعله في نطاق الواقع، فهو محقّ لأن سيّدنا المسيح عليه السّلام لم يكن يُلقي القداس والصلاة باللغة اللاتينية، بل كان يلقيها بلغة أمه وهي لغة الآراميين، ومن رأيه أيضًا أن اللغة اللاتينية لم تحقق أبدًا الهدوء والسكينة الفعلية للناس ، لأنها لغة غير مفهومة لدى الناس العاديين . وجد القسيس نُستلِر هذا الرأي بشعاً وحقيراً جداً واعتبره إضطهاداً له وللكنيسة، لذلك بدأ بشتم يوسف واضطهاده وتذكيره بمسقط رأسه الأليم، مشيراً إليه بالقول هذا هو يوسف الطفل غير الشرعي الذي أحتضنته الكنيسة وخلقت منه إنساناً، كان عليه اليوم أن يُرجع فضل الكنيسة عليه، ولكنه عوض أن يشكر الكنيسة التي ساعدته كي يصبح انساناً محترماً، فهاهو يضطهدها ويحرّض الناس بأشياء ليس لها قيمة ولا معنى. في عام ١٨١٨ تخرج جيل جديد من القساوسة، وبدأ يوسف المثقف الحكيم شخصياً بزيارة الناس اللذين لم يريدوا أن تكون لهم أبداً أي علاقة بالكنيسة أو اللذين فقدوا إعتقادهم بها في نفس الوقت، كان في ذلك كلّه يحمل قيثارته وأغانيه. كان نُستلِر ينتظر في المعبد حتى يزوره الناس بأنفسهم لذلك تأثر جدًا بوحدته وعزلته مما أدى إلى غيرته الشديدة من يوسف. وقد كان يوسف من الزائرين المفضلين المحبوبين في حفلات الزواج في القرية خصوصاً في أيام الصيف لأنه كان يحضر مع جيتاره و يجلس مع الناس ويشرب البيرة معهم ويغني لهم بعضاً من أغانيه الجميلة ولذلك كان محبوباً جداً لدى الجميع. وقد انعكس حبّ النّاس له عليه، ذلك لأن القسيس نُستلِر قدّم رسالة إلى رئيس الأساقفة يقول فيها إن يوسف هو السبب في تخلّف النّاس والشباب عن حضور الكنيسة ووصفه بأنه مُتخاذل ومُتسكع في الشوارع وعلى السالزاك مع الشباب وفي الحواري مع النساء، كما أنه يُدخّن وهذا كلّه لا يليق أبدًا بصفات القساوسة وأنه قد حان الأوان لتغييره لأن هذه القرية محتاجة إلى قسيس جديد .مناسب.

وعندما سأل رئيس الأساقفة الرئيس المباشر لنُستلِر ويوسف السيد القسيس ديخانت من دير زانكت غيورغن ليسمع رأيه في هذا الكلام الذي قاله القسيس نُستلِر حول يوسف، هنا كان رد رئيسهم مفاجئاً و صريحاً. فقد كتب في رسالته أن خطاب القسيس نُستلِر واضح جداً بأنه مليئ بالحقد والكراهية من القسيس العجوز ليوسف القسيس الصغير، وقال ذلك لأن القسيس يوسف مور محبوب جدًا من الناس ومعروف إذ يزور الكنيسة عدد هائل من الناس أثناء تقديم قدّاسه، غير أنه يقوم بتغيير واضح وصحي لموسيقى الكنيسة مما أثّر إيجابيا على أهل أوبيرن دورف وأهل القرى الأخرى المجاورة.

قوارب في نهر سالزاك

تأثر يوسف بهذا الحدث الأليم تأثراً كبيراً جداً وفي منتصف شهر ديسمبر من نفس العام، وبعد معاناة شديدة من الوحدة والإرهاق المستمر عادت إلى يوسف مشكلة الرئة من جديد، فقد مرض وتدهورت حالته الصحية. وعندما علم غروبر بهذه الحالة السيئة حضر إليه لزيارته ولم يستطع أبداً الإستمرار في قبول كلّ ما فعله القسيس العجوز نُستلِر في صديقه يوسف. لذلك دبّر خطة لمساعدة يوسف وبطريقة معينة ومقصودة استطاع غروبر أن يعطّل أورغ الكنيسة عن العمل والعزف وفجأة في صباح أول يوم قبل بداية الإحتفالات بعيد الميلاد عام ١٨١٨ وبالأخص أثناء قداس الصباح لم يُسمع أبدًا صوت موسيقى أو صوت الأورغ. وهنا أنزعج القسيس نُستلِر لأنه يعلم تماماً أنه بدون أورغ لا يستطيع تقديم خطبة وقداس ليلة عيد الميلاد وأصبحت الحالة مزعجة جداً له وذلك لضيق الوقت، إذ لم يكن له إلا فرصة واحدة فقط وهي تقديم القداس بالأساليب القديمة، عندئذ فرح غروبر كثيراً ونجح في تحقيق خطته وهي إتاحة الفرصة لصديقه يوسف لتحقيق رغبته، وبهذا فقد أتيحت لهم الفرصة بأن يقدموا قداس ليلة عيد الميلاد بالطريقة القديمة التي تعوّد يوسف عليها قديماً وبالأخص أثناء فترة إقامته فى ماريابفر أي بطريقة العادات والتقاليد والآلات الموسيقية القديمة جداً ولذلك قدّموا القدّاس والخطبة باللغة اللاتينية والألمانية. وبعد القدّاس أمسك يوسف بجيتاره وغنى الأغنية التى كان هو يسميها أغنية عيد الميلاد والمعروفة لدينا بأغنية (اللّيلة السّاكنة!اللّيلة المباركة). هذه القصيدة التي كتبها ولحّنها بنفسه لجميع البشر ولكي يستطيع عزفها في أي وقت وعلى أي آلة موسيقية للإحتفال بميلاد السيد المسيح عليه السلام.

تأثر القسيس نُستلِر تأثراً شديداً وتصالح القسيسان لمدة من الزمن. وبحلول شهر يوليو من العام الموالي تأججت الخلافات بين الرجلين من جديد وتقدم يوسف الى المركز المراقب للقساوسة بطلب لنقله. وفي أكتوبر من العام ١٨١٩ غادر يوسف أوبيرن دورف ليذهب الى كوخل. هذه القرية الصغيرة الواقعة أسفل جبال الالب كانت مشهورة بكنيستها الجميلة الجذابة كما كانت تعرف بمعجزة القديس سِفرين. وتتمثل المعجزة في ان يُعطى كل فرد من افراد الجماعة شمعة، وتشتعل شموع من كانت قلوبهم صافية فيما تخمد شموع من كانوا بقلوب سوداء فترفض الإضاءة. من هذا المكان بالذات تنطلق شعلة صوفية قوية منحت يوسف قوة جديدة رافقته خلال سنوات أخرى من الترحال. ففي خلال مدة تسعة سنوات زار يوسف أحد عشرة مجمعاً كنسياً كما يلي: غولينغ، فيغاون، هالاين، كرِسبل، أدنِت، أنثرينغ، كوّبل، ثم عاد من جديد الى أنثرينغ، أويغن دورف وهوف.

أرغن،(اورغ) اوبيرن دورف

تم نقل يوسف آخر مرة عام ١٨٣٧ حيث انتقل الى فاغراين في بونغاو. لم يكن سعيدا بالمرة لهذا الحدث ويعرف عنه أنه قد اشتكى ذلك في قوله المأثور:» في مجموعة/ أمة السرّاق والمعتدين هذه يعتبر القس كلبا للجميع». قام يوسف باستعمال ما امكنه من وسائل متاحة لتاسيس مجمّع دراسي حتى يتمكن الاطفال الفقراء من زيارة المدارس. وما ان استقام البناء حتى قام رئيس الاساقفة فريدريش فورست بتدشينه شخصياً. فاعتبر سكان الجهة هذا شرفاً وكانوا غاية في الانسجام مع السيد مور.

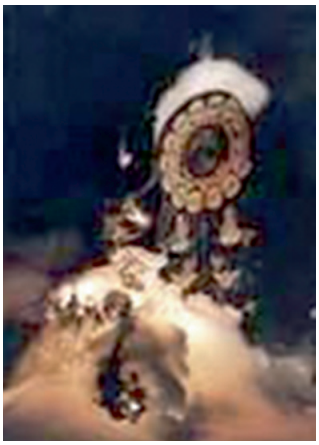

قبر يوسف مور

لقد كان ضيفاً مرحباً به حيثما حلّ وكثيراً ما يَعمَدُ، بعد ان يتناول ما لذّ من المشروبات، الى غيثارته ويغني واحدة او اثنتين من أغانيه. الشيء الوحيد الذي لم يكن يتحمله هو البهرج الزائف، فقد حدث أن قام بطرد أحد معاونيه الذي كان ينفق أغلب جهده في الاعتناء بملابسه عوض الاهتمام بالعناية الروحية للبشر. مات يوسف مور في فاغراين يوم ٠٤ ديسمبر ١٨٤٨. غادر العالم فقيراً كما جاءه معدماً. حيث لم يتوفر القدر الكافي من المال لاتمام جنازة تليق بمقامه، لانه أهدى كل ما يملك للناس وخاصة الاطفال الذين انسدت أمامهم سُبُلَ التعلم والتعليم. وأيضاً ترك يوسف لنا نحن أغنية عيد ميلاد المسيح التي يغنيها كل طفل يريد ذلك ويحتفل بها كل على طريقته.

هذه قصة هي قصة الانبعاث وتمثلها، كما ارتسمت لي. لقد اعتقدنا لمدة ١٤٦ عام في القصة التي تركها كزافيرغروبر منذ عام ١٨٥٤ والتي تذهب إلى أنّه في يوم ما قبيل عيد ميلاد المسيح من العام ١٨١٨ أن الناقوس الكنسي توقف في أوبيرن دورف ولذلك فقد قام هو ويوسف مور بتأليف الأغنية في ليلة واحدة. قام يوسف بكتابة النص فيما قام غروبر بتلحين الموسيقى. هذه القصة أصبحت اليوم عارية من الصحة. فبواسطة المخطوطة الاصلية لاغنية الليلة الساكنة التي تم اكتشافها سنة ١٩٩٥ ظهر حقيقة الامر. فهي المخطوطة الوحيدة بيد السيد مور وتحمل تاريخ الميلاد لسنة ١٨١٦. بذلك بدأت عملية البحث واعادة التأريخ لهذه الاغنية التي تعود الى شتاين غاسه زالتسبورغ.

قام هانو شيلف بالبحث والتنقيب في الأرشيف من أجل الحصول على هذه المعلومات الثمينة عن حياة يوسف. وقد استمر البحث عشرة أعوام تقريباً. وهو مؤسس متحف (اللّيلة السّاكنة!اللّيلة المباركة) في زالتسبورغ ، وبالأخص الغرفة التى نشأ فيها يوسف وترعرع

وكذلك هو المؤلف لكل من
(كتاب تاريخ هذه القصيدة (اللّيلة السّاكنة!اللّيلة المباركة
قصة العرض الأول